إبراهيم الوافي يستحضر التاريخ لرثاء الحاضر

لا يخفى على من يطالع ديوان "وحيداً من جهة خامسة" للشاعر إبراهيم الوافي حسه الثقافي الواضح، هذا الذي ما يلبث أن يتجلى في كل نص من نصوص الديوان المكون من ثلاثة أقسام: الرياض، طواف وعدة جمرات، طبول خرساء، فالوافي عاشق لأجواء النص الشعري العربي الكلاسيكي، ولكن تأثره برواد مدرسة التفعيلة ولاسيما السياب أكثر وضوحاً، وهذا التأثر يأتي في سياق تجربة الوافي الشعرية التي يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول: الشعور العربي الإسلامي، واستدعاء الماضي المجيد، والأسى لما حدث للعراق التي كانت مركزاً للإشعاع الحضاري وعاصمة للخلافة الإسلامية على مدار عدة قرون، الثاني: الهم الذاتي الذي لا ينفصل فيه الشاعر عن نصه الشعري، ودائماً ما نراه يطفو على السطح من خلال بعض القصائد أو المقاطع والجمل، وإن حاول الشاعر توظيف ملكاته الإبداعية لصالح فكرة أو قضية عامة.

الشعور العربي الإسلامي:

ظلت فكرة توحد العرب حلماً يطوف في مخيلة الكثيرين كلما اشتدت أزمات هذه الأمة، وقد ارتبط هذا الحلم بتاريخ طويل من التشتت والهوان الذي كان باباً لعناصر أجنبية احتلت مناطق مهم من أوطان المسلمين، وبزغ من عمق هذا الظلام شخوص قادوا المقاومات الوطنية إلى وحدة الصف وطردوا المحتل واستردوا ما سُلب، وكان أبرزهم الناصر صلاح الدين، وحاولت تجارب سياسية وعسكرية عديدة في العصر الحديث اتخاذ هذا النهج مخرجاً من هيمنة الاحتلال بكافة أشكاله ، وكانت القومية العربية والحقبة الناصرية أشهر هذه التجارب ، وظل الشعراء يتغنون بهذا الحلم بدءاً من الستينيات حتى وقتنا الراهن، بل إن حركة التجديد في الشعر العربي الحديث ارتبطت برواد كانوا أبناء هذا التيار في مقدمتهم : السياب، ونازك الملائكة ، والبياتي ، والحيدري وصلاح عبد الصبور ، وأحمد حجازي ، حتى غدت فكر القومية العربية من معالم هذا شعر هذه التيار،

قبل أن يخفت صوته في السنوات الأخيرة مع ظهور تيار قصيدة النثر الذي دعا إلى قصر الشعر على ما هو ذاتي ويومي وهامشي، بعيداً عن الأيديولوجيات والقضايا الكبرى؛ ولأن الوافي واحداً من أبناء قصيدة التفعيلة وليس النثر فقد حمل جزءاً من ميراثها بحسه القومي، لكن أداته ليست الشعارات أو البيانات ، بل اللغة الشعرية واستحضار رموزها الثقافية بطرق مختلفة، كالاقتباس أو المعارضة، أو تمثل المواقف، أو التأثر بالقاموس اللفظي، ومن ثم فقد حفل الديوان على مدار أقسامه الثلاثة بهذا الحس (حينما يصبح المتنبي ضميراً/ وبشار فعل مضارع/ سأعبر وحدي المواجع/ أغني لعينيك أنشودة كانتظار المطر/ وأزرع ما بين أذني وكتفي/ جهازاً يبلغني أن حرب البسوس انتهت/ أن المدينة حبلى بحزن الشوارع)، فالمتنبي ، وبشار، وحرب البسوس علامات الحنين للماضي العربي الذي يستعيد الشاعر مفرداته كشفرات سرية لعالمه الراهن، فالوافي يرفض واقعاً تسود فيه قيم بشار وتحل فيه فتنة البسوس من المحيط إلى الخليج، بينما قيم المتنبي تنحسر حتى كادت أن تصبح ماضياً، ومن ثم فإنه يقول: إنه حين يوقن أن هذه الرؤية السوداوية سادت تماماً، فإنه سيستغل تقنيات الزمن الحديث في وضع جهازاً يشبه أجهزة الاستشعار عن بعد ليبلغه في منفاه الاختياري بلحظة انحسار المحنة كي يعود إلى الواقع/ الحياة/ التفاعل الاجتماعي من جديد.

بكائية بغداد:

ما من عربي رأى ما حدث في حرب الخليج الثانية إلا وأصابه الحزن والأسى لما حدث للعراق وأهله ، وما من مُطَّلع على أبسط مجريات التاريخ العربي إلا وتذكر أن بغداد كانت لما يزيد عن أربعمائة عام عاصمة الإسلام والمسلمين، وكم خرج منها علماء وفقهاء أناروا ظلمات الإنسانية لعدة قرون، وكثيرون هم الذين حلموا بعودة صلاح الدين من جديد ليوحد العرب ويخرج الغاصبين من العراق وفلسطين، ومن ثم فقد امتزج الحزن على بغداد بالرغبة الخفية بحس الانتماء القومي لدى إبراهيم الوافي كغيره ممن شهدوا مأساة الحرب على العراق، وتجسد هذا المزيج بشكل واضح في الجزء الأول من قصائد الديوان، الذي افتتحه بقصيدته عن مدينة الرياض،

إلى أن كتب بكائية " الثانية عشرة بكاءً حسب توقيت بغداد" مزج فيها ما بين ذاكرة الشعر العربي وواقع الدمار الشامل على أرض العراق، وجال ما بين الماضي والحاضر منفساً عن غضبه الآني ضد مفردات/ مؤسسات عصرنا الحديث، هذه المفردات التي تواطأت وهيأت النفوس والأوضاع لقبول ما حدث، موجهاً خطابه لهند التي لا نعرف من تكون من بين العربيات اللواتي اشتهرن في الثقافة العربية، لكن الوافي استفاد من كل معطيات هذا التداخل بين اللحظتين المتباعدتين في التاريخ العربي، فجمع ما بين القاموس القديم وقاموس الإعلام الحديث في طرائقه الجديدة، وكأنه معلق أو مذيع محايد للخبر الوارد إليه (قد جاءنا الآن: أن انفجاراً عنيفاً يهز التواريخ/ في حين أن هنالك وفداً توجه فجراً تجاه التتر..!/ ييا هند... بغداد/ عدت إليكم ولا خوف فيها../ فقد ذكرت دمعة من مصادر أخرى/ بأن المدينة قد أخليت من جميع الكلاب/ ولم يبق غير البشر)، لكننا نلحظ أن هذا البيان والخطاب/ الرسالة يحمل تناقضه بداخله مما يجعله كابوساً مساوياً للحلم العربي بالتوحد، فالمصدر دمعة، والخبر العاجل الذي بثه هو خروج الأعداء الذي وسمهم بالكلاب، فكيف لدمعة وليس بسمة أن تذيع خبراً كهذا إن لم يكن مناقضاً للواقع الذي لا يريد الشاعر أن يراه أو يقر به، وربما أمكننا تأويل الخبر على وجه آخر بوصف بغداد أم الحضارات - وليست المعارك - باقية بالسياب والمتنبي وهند وتاريخها الثقافي والحضاري الطويل، بينما أعداؤها زائلون بأجساد وأرواح أبناء هذا الوطن، ومن ثم فإن الشاعر على استعداد للتضحية ولو بحياته على أن تبقى بغداد وهندها (بنفسي أنت/ ألا أيها الوطن المستقيم على الصبر/ لا تحزن/ يكفي بأني وأنت كثاني ثلاثة فعام ألفين/ تحملنا الريح عبر نواح الثكالى/ وتفضي بنا لممر صغير/ تتاجر فيه الحكايا بأحزان كل البيوت/ بنفسي أنت/ إن شئت بنفسي/ على أن تؤكد لي أن هنداً ستبقى/ وبغدادها لن تموت).

الهم الذاتي:

لعل الوجه الثالث لتجربة الوافي في ديوانه "وحيداً من جهة خامسة" هو الأجمل والأكثر قرباً من الحس الشعري، هذا الوجه الذي خلا فيه الشاعر إلى نفسه وهمومها التي توزعت ما بين الإحساس بالغربة ورثاء صديقه

عبدالله باهيثم، ورصد موقفه الذاتي من الوجود، وقد افتتحه بقصيدة عن مدينة الرياض (الرصيف سيبني على حده موعداً للخطيا/ والشوارع تكتم أنفاسها كلما عاث فيها هروب/ كلنا في الشمال العليا/ إذا كان بعض السويدي الجنوب/ كلنا للرياض نحرك عقرب ساعتنا/ باتجاه شوارعها ثم نوشك بالظل قبل الغروب/ لا تكمم فمي.../ إنها مئزر الوقت تحمل قنديلها راعشاً في الشتاء/، لتدفئ أوردة الصبر فينا/ وتنتعل الريح..)، فالرياض هي المدينة التي تجمع بين النقيضين، الحب والكراهية، والألفة ، والغربة، وهي حالة إنسانية تعرضت لها معظم الآداب العالمية ، وكتب عنها شعراء كبار من منطق هذين النيقضين .

وتجيء قصائد الجزء الأخير "طبول خرساء"في أغلبها على هيئة مقاطع قصيرة تذكرنا بقصائد "الهايكو اليابانية "، يخلو فيها الشاعر تماماً لتأملاته الذاتية إلى حد التماس مع الجوهر الشعري الخالص، عازفاً على لغة هادئة ناعمة بعيدة عن الانشغال الحضاري الذي أخذ جزءاً كبيراً من تجربة الشاعر، وهو انشغال استنزاف الكثير من طاقة الوافي الشعرية في جمل وعبارات لا تضيف إلى روح النص وحالته الشعرية، بل تبدو وكأنها جاءت لتؤكد موقفاً أيديولوجياً خارجاً عن إطار الشعر، لكنه في هذه الموتيفات "طبول خرساء" قدم لوحات صغيرة لكنها متقنة الصنع مرهفة الحساسية تقترب من الذات الشاعرة والحالة الإنسانية التي تريد رصدها: (المدينة مخمورة تتعاطى النبيذ المعتق/ صلى بها الناس/ قبلتهم صوت أنثى/ المدينة مثل القصيدة تبكي وتضحك/ تلهو وتنهك/ تغتاب شاعرها في حديث البيوت).

بقي أن عنوان هذه التجربة "وحيداً من جهة خامسة" بدا لنا غريباً بعض الشيء، فلا نعرف ما هي الجهة الخامسة التي أرادها الشاعر ، فمن المعروف جغرافياً أن هناك أربع جهات، ومن الصعوبة القول بأنها جهته الخاصة، فالذاتي لا يمكن جمعه إلى الجغرافي أو الموضوعي، ولا توجد قصيدة في الديوان تحمل هذا العنوان، أو عتبة للنص الذي تحدث على

امتداده عن الذات والعام، لكن فيما يبدو أن غرام الوافي بمفردات الرياح والطقس هي التي أوحت له بهذه الجهة.